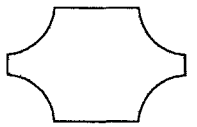

بئر الماء الساخن

يوسف أبو ريّة

ها هو الموعد قد أزف، ولم تأتِ بعد، وقلبي لا يطيق المكوثَ في الظلام.

- ١ -

رأى أربعةً من الصبية يأتون كقطيع صغير. وكان السورُ الحجريّ قد تلاشى، ورُفعت الأبوابُ التي تحجز هذه الساحة، وأضيءَ المكانُ فجأةً بحزمة من نور، واختفت صناديقُ الحَبّ، وعشّة الفرن، واستعاد المكانُ حالَه الأولى. أما هو فقد طوى نفسه على نفسه في ركنه وراح يرقب تحولات المكان. كتم أنفاسه، ورفع يده إلى صدره ليحد من الضربات.

رأى الشعلة خلف قضبان حجرة العدة، وسمع أصوات الرجال تتعالى وهي تمسك بيد الحديد. دارت الآلة دون صوت، والقطيع الصغير يتابع الرجال من خلف النافذة، وحينما بدأ الماءُ الساخن بالتدفق من الماسورة إلى البئر، اقترب منه الأولادُ، وراحوا يضربونه بأياديهم الصغيرة، بل تجرأ ولد منهم فخلع ثيابه. نظروا إليه بإعجاب وراقت لهم اللعبة. دار الولد العاري نحو جدار الطاحونة، ورشه بماء البول، وفعل الأولاد الآخرون مثله، وبدأوا يختبرون أعضاءهم الصغيرة باللمس، ودنوا من الماء الذي يشكل دائرة حول فوهة البئر، ناموا على ظهورهم وهم يرفرفون بأياديهم، فيتناثر الماء في الجهات حتى ابتل الوجهُ برذاذ خفيف، مَسَحَهُ بحذر، ثم اندفق رذاذ كثيف، انبثق من فوهة البئر، وشمل المكانَ جميعه. حتى إنّ الغبار الناعم اهتاج، وأثار عاصفةً ترابية أخفتْ أجسادهم عنه، حينما هبط الغبار، وانجلى المشهد. رآهم يحملقون في البئر، ثم هرعوا فجأة تاركين ثيابهم، وكانوا قد صاروا ثلاثة.

لم أعد أرى شيئاً البتة.. وأنا أخاف الغرق، وهي لا تريد أن تأتي.

- ٢ -

رأى نخلةً تنتصب في المكان وشجرة توت تزدهر ثمارُها في غير موسمها. وشم أنفُه رائحةَ النعناع والريحان تفوح من حوض الأرض المزروعة على البئر إلى جوار السور الواطئ للمصلّى. وكان الكهل بلحيته الطويلة البيضاء يلهج لسانُه بأوراد الفجر، عبر سور المصلى. واتجه إلى جذع الشجرة، رفع جلبابه من أمام وأخرج ريحاً مخنوقاً، ثم قام الى البئر، وراح ينزح الماء بيمينه الى سَوْءَتَيْهِ، بعدما شمَّرَ أكمامَ الجلباب، ومال بوجهه الى الماء، وارتفع صوتُهُ بأدعية الوضوء. كان يود أن يدنو منه ليتملى سماحة وجهه. نادى عليه: جدّي.. يا جدي.. ولكن الرجل لم يلتفت إليه كأنما لم يسمع نداءه، بل قام يجفف وجهه بأطراف الجلباب، وسار باتجاه باب العدة. مرّ من أمامه مباشرة، ولم يهتزّ له جفن. نادى عليه بصوت خفيض: جدي..

واختفى جسدُ الرجل، وبقي صوتُه يردد آيات القرآن، وقال لنفسه متحسراً: له العذر.. لأنه مات قبل أن أولد.

هل كانت تخدعني حين ضربت لي الموعد.. في هذا المكان؟

- ٣ -

رأى النسوةَ يأتين نحو البئر، نظرن إلى المصلّى، فوجدْنَهُ فارغاً، انطلق منهن ضحك مغرد، وقلن هامسات: ذهب حَمُونا إلى الصلاة.

وبدأن في رفع الجلابيب والقمصان، وتركْنَها على سور المصلى، وسرن عاريات إلى البئر. أرخن أردافهن الثقالَ في البقعة الدافئة، وصرن ينزحن الماءَ بأكفهنّ الى صدورهن، وتجرأتْ واحدةٌ منهنّ، وهبطت الى البئر، واختفى رأسها تماماً، والأخريان حلّتا ضفائرَ الشعر المبتل، وغطستا في البئر معها، وهو – في مكانه الخفيّ – ينصت لهمسهنّ البهيج، ولحكاياتهن عن تلك الليلة. كانت كلُّ واحدة منهم تفاخر الأخرى بفحولة زوجها. ثم خرجن من البئر، وهن يعصرن الماء عن عريهن، وينثرنه عن شعورهن، وارتدين هدومهنّ على البلل، واختفين قبل أن يؤذن للفجر.

ها قد أوفت بوعدها.. وجاءتْ في اللحظة التي قررتَ فيها القيام.

- ٤ -

الباب الهشّ استجاب لجسمها وهي تمرق منه، كانت تبدو كطيف نوراني، يطير في فضاء الحوش، لم يسْمع لأقدامها صوتاً، وهي تدوس الأرض، ولم ينتفض الغُبار لسيرها، وتزحزح قمرٌ كان يختفي على سطح الدار، وتوسط المكان. أقبل عليها، لم يلمسْ يدها بعد، بل استغرقته صورتُها المهتزة على الماء، وهي ظلت على صمتها تنظر حيث ينظر. الصورة تهشمت على صفحة الماء، فصارت تبدو كراقصة مبتذلة. رفع كفه إلى عينه ليخفي الصورة المشوهة.

بعد برهة رفعها ليحتويها بين يديه..

كان القمر قد عاد الى مكمنه، وصار ثوبها الأبيض الشفاف هو الضوء الوحيد في المكان.

– تعالَيْ إلى هناك. وأشار إلى صندوق الحَبّ.

– تركتني زمناً لأطياف الأوائل.

– تكلمي.

ومد يديه إلى ذراعيها، فاستشعر خشونةً، فزع لها قلبُه، ولكنه تماسك

حتى لا يبدو نافراً منها.

ولما فَرَدَ ذراعيْه عن آخرهما ليضمّها إليه، وجد أن جسمها لانهائي، ولا طاقة له باحتضانه. مال رأسه الى صدرها ليكتّف جهدَه المهدور، فلم يحتمل صدغُه الأشواكَ المبْرعة. أطلق يديه في جسمها تبحثان عن نعومة البدن، فصدتهما بخشونة ذكورية. ولما أفاق من هذا عاد لينظر إليها، وكان – القمر – قد أطل عليهما مرة أخرى، ودنا حتى صار سقفاً للمكان.

رأى أنه يحتضن الفراغ، وما كاد يعود بظهره حتى رأى الجسد الذي وثب الى الماء الساخن. ظلّ فترة يقبق ويصنع رغاويَ فوارةً على وجه الماء، ثم انطفأت الفقاقيعُ، وعاد كل شيءٍ إلى سكون البداية.

القاهـرة

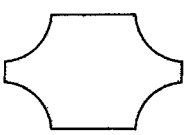

الزَّيْتونُ لِلْمَوْتَى

درصاف نويرة

إلَى إيكَارُوس المَغْرِبِيّ، سَيَهَبُكَ الزَّيْتُونُ غَزَالَه

آخرَ مَرَّةٍ..! آخر مرّةٍ..... كانَ العَرَقُ يطلعُ مثلَ أعْشَابِ غابةِ الزّيتون، متناثراً، مُتَقَطِّعاً، ميّتَ الرّائحةِ، تَافِهاً، مُتْمُسْكِناً..

وَجهُهُ الأخضرُ الآنَ مرفوعٌ فوقَ، وفوقَ البابِ الحديديِّ الذّي يُخْفي الطّرقاتِ وفوقَ الجُدْرَانِ المُعَرْوَرَقَةِ، وفوقَ القَمر، وفوقَ الظُّلْمةِ، وفوقَ رائحةِ الزَّيْتُونِ يُعَاشِرُ بعضَهُ لَيْلاً.

كَتَبَ فوقَ البابِ الحرفَ الأوّلَ من اسمهِ.. «هذاكيْ يرتَعَ في ذهْنِ الآتينَ تاريخي أنا». وابتَسَمَ، وصفّر، وتوقّفَ نَبضُهُ لحظةً ليُتابع نجماً.. وخراباً خارج هذا الباب العالي.

تقلّصَتْ قامتُهُ مجدّداً.. يجبُ أن يَخرج كَرَجُلٍ مَلِيءٍ بالكرامةِ، مليءٍ بالاعتزازِ، مليءٍ بالنّخوة؛ وأن تكونَ قامتُهُ متماسكةً كَوَرْدَةٍ عتيدةٍ، كامرأةٍ غامضةٍ لا تشي بتجربةٍ، ولا تشي بتعب، ولا بالحزن العميق.

يا عزيزتي الدّنيا، عندمَا أسقطُ فوقكِ لن تُقَاوِمي، وحينَ أقلبك لا يمكن البتّة أن تكوني أكثر من ممرّ واحدٍ.

تمتزج في أنفي رائحةٌ منغلقةٌ بالقَرفِ الذّي عانيتُهُ هُناكَ، تمتزجُ سويّةً رائحةُ الزّعْتَرِ والخُزَامَى والزّيتِ المتدفّقِ من الحبّاتِ السّوداء المنتفخة والطريّة حينَ تسحقُهَا أصابعُنَا، كنّا نُحبّ أن نُلامسها بحنوٍّ، أن نتشهّى طعَم الزّيتِ الحامضِ يحرقُ جنباتِ ألسنتنا الجافّة، ونموتَ.

.....

لكنّكَ لم تتعلّمِ المَعْنَى، مَعْنَى الحُنُوّ، كُنْتَ جلَفاً دائماً، تظلُّ جلفاً، لستَ فلاحاً مثْلَ أبيكَ، لا فَخْرَ لكَ، كانَ يُحبُّ الأرضَ وما يدبُّ على الأرض، كان يعاملُها بحبّ ويقدّرُ أنوثتها، ويطلب لها الماءَ، ويصلّي، ويتمسّحُ بصدرها، ويأوي نسلها؛ وكان وقت الحرثِ يشعُرُ أنّ نخوتَهُ ورجولَتَهُ تتدفّقان، وكان يظلّ طيلة أيام متتالية مزهوّاً ومُطَارَداً برغبةٍ حانيةٍ للعطاءِ.. دائمةٍ. وكانت أمّكَ تبتسمُ طويلاً، كانت تحبُّ الأرض ولا تغارُ، كانت تعلم أنّ الحياةِ الكريمة تأتي من هناك وأنّ زوجها ليس سِوَى راعي تُربتها وعطائها، وكانت تعلم أنّ الأرض هي الحياة، حياتنا جميعاً.

«لكنّ الحياة الكريمة تبدأُ من هُنا، من داخلها، من قناعتها المحفة حدّ الاستسلام الطيّب للبؤس، من اقتناعها بأنّ الأرضَ هي التي تمنحُ سعادةَ الحياة، من اقتناعها أيضاً بأنّ من لا يذوق الأرض لا يمكن أن يعرف طعم السّعادة.. لكن كلّ شيء كان يأتي من داخلها هي.. وأنا لم أستطع امتلاك هاته القناعةِ وامتلاك هاته السّعادة..»

لَسْتَ ابن أُمّكَ إذنْ.. ولست ابن أبيكَ.. ولستَ سوى لحمةٍ أسقطها فُجُورُ الكون كلّه.. لستَ سوى خُطوة عكرة في كلّ هذه المدينة.

كيف يمكن أن تكون طيّباً مع الدنيا!؟

.. والقسوةُ في قسماتك، وفي عروق يدكَ وذِراعكَ، وفي اهتياجك، وفي الباب الكبير، وفي وقاحتك قسوةٌ، وفي حبّكَ قسوةٌ، وفي الرّوح المصبوغة بالهمّ وبالماضي الكسيح قسوةٌ.

.. والدنيا كالأرض البور الفارغة، تطلقُ صوتكَ فيدخل في التّيهِ، وتطلِقُ عينكَ فتسقط في الإسفلت الذّائب، وتطلقُ رغبتك فتصطدمُ بسماءٍ كلَوْحٍ من النّحَاسِ وتدوخ، تطلقُ أحلامكَ فتضحكُ عليكَ بعد مسافة، تمدُّ لسانها، تبصقُ، تتعرّى، تَفْسُقُ، تسبُكَ، «مشْ راجلْ»،